كنيسة مارمرقس القبطية
الأرثوذكسية
بمصر الجديدة

لماذا تحت الأقدام ؟

القمص/ يوحنا باقى

اسم الكتاب : لماذا تحت الأقدام ؟
المؤلف : القمص/ يوحنا باقى
الناشر : كنيسة مارمرقس – مصر الجديدة
الطبعة : الأولى
المطبعة : مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبى بمريوط
الجمع التصويرى : الناسخ السريع (فرع الدلتا) 22406992

المقدمـة

ما أعظم الاتضاع وما أرهبه؛ لأننا عندما نتكلم عنه نتكلم عن الله، الذى أظهر الاتضاع بتجسده، ثم على صليبه، فهو طريق الخلاص للبشرية كلها، والشرط الأساسى لاتباع المسيح.

إن كانت الخطية الأولى للإنسان هى الكبرياء، فالفضيلة الأولى هى الاتضاع، التى تفتح له الطريق نحو الله. وكما يقول القديسون، إنها الأرض التى تحمل الغروس المختلفة، أى الفضائل، فبدون الإتضاع لا تكون الفضيلة.

إن الإتضاع هو الطريق الذى بدأه المسيح وسار فيه جميع القديسون، هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى الملكوت.

الإتضاع هو نقطة ضعف الشيطان، فهو يعجز عنه تماماً، ولذا فبالاتضاع نستطيع أن نحطم الشيطان الذى يحاول أن يتحايل بطرق كثيرة؛ لإبعاد البشر عن الاتضاع، حتى استطاع عن طريق الأديان والمذاهب أن ينادى بما يبعد عن الاتضاع؛ لأن الاتضاع هو باختصار عدو الشيطان.

فى هذا الكتاب رد واضح على الشيطان، الذى يتهم الاتضاع وتابعيه بالضعف والمذلة؛ لأن الاتضاع هو قاهر جميع الشرور. وهو عكس ما يدعى الشيطان وأعوانه؛ لأن من ينظر إلى العمق يستطيع أن يكتشف قوة الاتضاع، التى لا يقترب إليها أحد.

يبين هذا الكتاب نواحى القوة المكنوزة فى الاتضاع، التى ينالها كل من يقبل عند أقدام الآخرين، كما جلس المسيح عند أقدام

تلاميذه وغسل أرجلهم. وتظهر قوة المتضعين فى ازدرائهم بأفكار العالم؛ التى تعطلهم عن الاتضاع، فيتقدمون من مجد إلى مجد فى طريق الله.

أرجو أن يكون هذا الكتاب وسيلة لثباتك فى الحياة الروحية وقوة تواجه بها جميع قوى العالم؛ لتنتصر على الشيطان وتعالج به كل من تقابلهم، الذين يحاربون بالكبرياء؛ لتعيدهم لحياتهم الأولى كأبناء لله.

أشكر كل من شارك فى وصول هذا الكتاب إليك أيها القارئ، وأطلب من الله أن يكون هذا الكتاب سبب بركة لحياتك، بشفاعة أمنا الطاهرة العذراء مريم والشهيد العظيم مارمرقس الإنجيلى والرسول وبصلوات أبينا الطوباوى المكرم، رئيس الكهنة، البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث، أطال الله حياته وثبته على كرسيه سنيناً عديدة وأزمنة سالمة هادئة مديدة.

عيد الميلاد المجيد القمص

2010/1/7 يوحنا باقى

الفصل الأول
انطلاق فى محبة الله

الفصل الأول
انطلاق فى محبة الله

عاش آدم متمتعاً بمحبة الله فى الجنة – هو وحواء – إلى أن آثار الشيطان فى حواء، ثم آدم الذات والانفصال عن الله، فسقطا وحرما من عشرة الله. وبالتالى فالطريق لاستعادة الإنسان حياته مع الله هى بالاتضاع. وذلك يظهر من الخطوات الآتية :

1- تفرغ من الذات :

إن الوضع الطبيعى للإنسان أن يمتلئ قلبه بمحبة الله ولا يوجد فى داخله إلا هذا الحب. أما وجود الذات المنفصلة عن الله فهو أمر غريب عن طبيعة الإنسان؛ لأن الإنسان بين يدى الله يتمتع بمحبته وكمال السعادة. فلماذا يترك هذا النعيم؟ إذن بالتالى تفكير الإنسان فى نفسه أنه جيد، أو ردئ بعيداً عن الله، أو مقارنته نفسه مع الآخرين، هل هو أفضل منهم، أو أقل؟ هو تفكير شيطانى، المقصود به إخراج الإنسان من سعادته التى يحياها فى أحضان الله.

لذا يلزم انسحاق الذات والانشغال فقط بمحبة الله؛ ليستعيد الإنسان فرحه، فيشعر أنه وحده لا شئ ولكن بالله يستطيع كل شئ، كما قال بولس الرسول "أستطيع كل شئ فى المسيح الذى يقوينى" (فى4: 13).

فالاتضاع هو تفرغ من هذا الفخ الشيطانى، الذى يهدف إلى إقامة صنم داخل الإنسان هو الذات، يتعبد له وينشغل به، فتضعف محبته لله؛ لأنه ينشغل بمحبة ذاته ويضطرب.

فالاتضاع يخلى القلب من كل ما يعطل محبته لله، فيحب الله من كل قلبه ويحب أيضاً نفسه المتكلة على الله، فلا يستطيع أن يراها إلا عطية منه. ويحبها لأنها داخل الله ولا يراها إلا من خلاله، أى تنسحق الذات تماماً.

2- تفاعل مع الحب :

إذ يتفرغ القلب من محبة الذات بالاتضاع يستطيع أن يشعر بمحبة الله؛ لأن الذات تقف كحاجز عظيم يمنع إحساس الإنسان بالله. وإذ يشعر الإنسان بمحبة الله يتأثر جداً وينسحق أكثر وأكثر أمام هذا الحب، فيشكر الله من كل قلبه على كل محبته.

وإذ قد زال الحاجز يستطيع الإنسان أن يتفاعل مع الحب الإلهى، الذى سعى نحوه؛ لأن الله دائماً هو البادئ، فلا يستطيع الإنسان أن يصد هذا الحب القوى المبذول على الصليب، فيقبل أن يقف فى الصلاة، حتى ولو بتغصب ويجبر نفسه المتكاسلة أن تفتح الكتاب المقدس. حتى يخضع الجسد فى النهاية ويتعود الإنسان الصلاة والتأمل، بل يبدأ تذوق لذة التفاعل مع الله ويختبر أعماقاً جديدة من معرفته لله، أى تنكشف من أمام عينيه الحواجز، فيرى جمال الله ويفرح به. وهكذا يستعيد الإنسان علاقته الطبيعية مع الله، التى كانت فى جنة عدن وخسرها بسبب الكبرياء.

هذا التفاعل مع محبة الله يعطى حيوية للإنسان ويثق فى نفسه المتكلة على الله ويجد لذة للحياة، إذ دخل الله فى حياته، حتى يستطيع فى النهاية أن يقول مع بولس الرسول "لى الحياة هى المسيح" (فى1: 21).

بانفتاح عينى الإنسان يرى أحداث حياته بشكل جديد. فقديماً عندما كان مستعبداً لذاته كان يشعر بالظلم ونسيان الله له، بل قسوته عليه، أما الآن فيستطيع أن يكتشف الله فى الضيقات التى يؤدبه بها لإصلاحه وليخلصه من خطاياه، فيشكره على اهتمامه. ومن ناحية أخرى يزداد فهمه لرعاية الله، فيتعلق قلبه بالحب الإلهى ويتحرك نحوه بخطى ثابتة.

3- نمو فى الروح :

عندما يبدأ تفاعل الإنسان مع محبة الله ولو قليلاً قليلاً، يتذوق حلاوة لا يعبر عنها، فتتحرك أشواقه نحو الله يريد المزيد، فبعد أن تعود تذوق قطرات الشهد، يريد أن يشبع به، فيزيد من أوقات وجوده مع الله ويتفهم الكلمات التى يقرأها فى الكتاب المقدس، أو ينطقها فى مزامير الصلاة. وينفتح قلبه ببنوة ودالة ليحدث الله بلجاجة، فيتمتع بعلاقة أعمق وينمو كل يوم فى محبته لله.

الأكثر من هذا أنه بمرور الأيام يتحول إلى إنسان روحى يستخدم الماديات ولكن ينفك تعلقه بها، فيستطيع أن يتنازل تدريجياً عن الماديات، فينمو حبه وتعلقه بالله ويحكم على الأمور

بشكل روحى، فيزداد ارتباطه بكل ما يساعده على الروحانية؛ لأنه أصبح مميزاً للروحيات، بل محباً لها ومرتبطاً بها.

ويستطيع أيضاً أن يميز الروحانيين، فيسعى إليهم؛ ليتشجع بصحبتهم ويتعلق قلبه بالقديسين الذين يتشفع بهم، فيلهبون قلبه بمحبة الله، كما التهبت قلوبهم. وهكذا يصبح إناءً مختاراً يعمل فيه الروح القدس بقوة ويملأه؛ ليفيض على من حوله.

4- مساندة من الله :

إذ يرى الله تجاوب الإنسان وأشواقه، يفرح به ويسانده؛ ليواصل طريقه نحو الحب الإلهى، فيذيقه الجديد كل يوم من حلاوة عشرته ويفتح آفاقاً جديدة لطموحاته الروحية، فيشتاق أن يحقق خطوات فى كل منها.

ويسانده الله أيضاً بالثبات فيه عند هجوم أفكار التشكيك، أو اليأس، أو حتى الفتور الروحى؛ لأنه قد تعود التغصب من البداية، فيظل ثابتاً فى ممارساته الروحية بتشجيعات الله التى تأتيه من آيات الكتاب المقدس، أو مشاعر داخلية، أو من أب الاعتراف وكل المحيطين به.

ومن المساندة الإلهية أن يضئ عليه بنوره عندما يخطئ؛ حتى يرجع سريعاً ويتوب ويقوم مطالباً الله بمساعدته فى دموع وندم، فيستعيد انفتاح عينيه ويبدأ من جديد فى نموه الروحى وأحياناً يكون بشكل أكبر من ذى قبل.

5- تذوق للأعمـاق :

مـن أجـل مثـابرة هـذا الإنـسان الروحـى يـشجعه الله فـى إدخاله إلى الأعماق، فيرى أموراً لا يعبر عنـها؛ لأن وعد الله واضـح أنه "يقاوم الله المستكبرين أما المتواضعون فيعطيهم نعمة" (يع4: 6).

هذا التذوق الجديد هو درجـة أعلـى فـى النمـو الروحـى، تجدد حيويـة الإنسان ونـشاطه مهمـا كـان عمره، فينـسحق أمـام الله شاكراً ويطالب الله أن ينعم عليه بالمزيد، خاصة وأنه قد اختبر قبلاً مرات كثيرة عطايا الله، فيتقدم من نمو إلى نمو متهللاً، وفى نفس الوقت يـزداد اتـضاعاً، ممـا يتـيح لـه فـرص أكبـر لاختبـار أعمـاق جديـدة. وهكـذا تتقـدم حياتـه الروحيـة طـوال عمـره ولا تعطلهـا السقطات، بل تزيدها قوة ومقاومة للشيطان، فيفرح كل أيامـه، حتـى ينطلق للسعادة الأبدية.

دخل هذا الإنسان إلى الدير وترهب وكان يتصف بالتواضع، واهتم أن يتعلم من كل أحد، ونما فى كل ممارسة روحية وفضيلة. كان نموه هادئاً ومستمراً، فوصل إلى درجة عالية فى محبة الله؛ لأن الله فاض عليه ببركاته، لكثرة اتضاعه.

مرت الأيام وظهر تميز هذا الراهب، فرُسم كاهناً، بعد أن تمنع كثيراً؛ لضعفه. وتمتع بصلوات القداسات، فنمى فى محبته لله وتزايد فى الفضيلة، حتى أنه كان يشعر بكلمات القداس وطقوسه، فكان ينظر إلى الشمعتين – اللتين على المذبح، اللتان ترمزان للملاكين، الذين كانا فى قبر المسيح بعد موته، واحد عند الرأس والآخر عند القدمين – وكان يشعر كأنهما ملاكان أمامه. وكان يفرح فى خشوع؛ عندما يلمس جسد المسيح ودمه.

إذ رأى الله اتضاعه ومحبته، أنعم عليه فى أحد القداسات، بأن ظهر له ملاكان يقفان على جانبى المذبح، فخاف أولاً ولكنه فرح أيضاً برؤيتهما وواصل قداسه بخشوع شديد حتى النهاية وعندما رش الماء، انصرف الملاكان.

تكرر ظهور الملاكين له فى كل قداس، فكان يفرح بهما، لكنه للأسف بدأ يشعر بتميزه عن باقى الرهبان، برؤيته الملائكة، أى بدأ يفقد اتضاعه وبالتالى تضعف محبته وأشواقه نحو الله.

فى أحد الأيام وجد بين الكتب، كتاباً صغيراً فيه أحد القداسات ولما قرأه أعجبه وبدأ يصلى به ويتعزى بكلماته المحركة لمشاعره، وظل يتمتع برؤية الملاكين.

انتقل إلى الدير راهب شماس، أى لم يأخذ رتبة الكهنوت وكان دارساً للعقيدة وكتب الكنيسة، صلى هذا الشماس فى إحدى المرات مع هذا الكاهن، ولاحظ أن كلمات القداس غريبة، بل واكتشف أيضاً عبارات خاطئة فى القداس، تؤكد هرطقات، فعلم أنه قداس وضعه الهراطقة ولم يكتشف هذا الكاهن ذلك.

فى نهاية القداس نبه الشماس هذا الراهب، بلطف، إلى وجود أخطاء فى القداس وأعلمه أن هذا القداس وضعه الهراطقة ولا يصح أن نصلى به، ولكن رفض الكاهن كلام الشماس بكبرياء؛ لأنه كان يشعر بتميزه، بدليل ظهور الملائكة له.

تكرر حضور هذا الشماس مع الكاهن فى القداسات، فحرك الله قلب الشماس؛ لينبه الكاهن أكثر من مرة، أما الكاهن فكان يغضب وينتهر الشماس؛ لتطاوله فى أن يعلمه وينبهه، فصمت الشماس وأخذ يصلى من أجل الكاهن؛ لينبهه الله إلى الحق.

فى أحد القداسات، بعد أن أنهى الكاهن الصلاة وقبل أن يرش الماء ويصرف الملائكة، حدثه قلبه أن يسأل الملائكة عن صحة هذا القداس وتوجيهات هذا الشماس الجديد، فسألهما عن رأيهما فى كلام الشماس، فأجاباه بأن يطيع الشماس؛ لأن كلامه صحيح. فقال لهما "فلماذا لم تنبهانى أنتما، بأن القداس غير سليم؟" فقالا له "إن الله قد رسم أن ينبه البشر بشراً مثلهم، إلا فى حالات خاصة، مثل إعلان البشرى بميلاد المسيح للعذراء، أو فى حالتك أنت؛ لأنك كنت متضعاً ونامياً فى محبة الله ولكن فى

كبرياءك فقدت التمييز والاستعداد للطاعة والتعلم من كل أحد، ونصحاه بأن يعود إلى اتضاعه ويعلم أن ظهور الملائكة له هو لتشجيعه؛ حتى يستمر فى جهاده ونموه الروحى.

انتبه الكاهن وعاد إلى نفسه وحياته الأولى المتضعة وترك هذا القداس الغريب واهتم أن يتعلم من هذا الشماس ومن كل الرهبان، عالماً أن ظهور الملائكة له تشجيعاً من الله، ليخشع ويتضع أكثر وأكثر.

بدأت مشاعره الحارة فى الصلاة تعود وعندما كان يرى الملائكة فى القداس كانت دموعه تنساب ويشعر بعدم استحقاقه برؤية السمائيين ويزداد إحساسه بوجود الله على المذبح.

الفصل الثانى
فيض عطايا الله

الفصل الثانى
فيض عطايا الله

الله غنـى فـى المـراحم، لكنـه لا يعطـى مجـده لآخـر؛ لـئلا ينسب الإنسان عطايا الله لنفسه ويتكبر؛ لذا تفيض عطايا الله على المتـضعين؛ إذ مـن المؤكـد أنهـم سيـشكرونه ويـزداد اتـضاعهم. وعطايا الله تظهر فى أشكال مختلفة للمتضعين أهمها :

1- يكشـف الخطـايـا :

الكبرياء تعمى القلب، فآدم المتضع كان يتمتع برؤية الله فى الجنة، ولكن عندما سقط فى الكبرياء، بسعيه أن يصير مثل الله فـى معرفـة الخير والشر، اختبأ وراء شجرة؛ ليختفى من وجـه الله. وهكذا تصرف بجهل، إذ هو يعلم أن الله يرى كل شئ فى كل مكان. وهكذا أيضاً كل متكبر يفقد تمييزه لخطاياه، فيسقط ويبرر سقطاته، فيتقدم من شر إلى شر.

أمـا المتضع فيكشف لـه الله الخطايا؛ ليحترس منـها، فقد حذر الله قديماً قايين من خطية القتل وأعلمه أن الخطيـة عند البـاب رابضة، ولكنه بكبريائه لم يطـع الله وقتل هابيل أخاه. أمـا المتضع، مثل شاول الطرسوسى، فيتحول بسهولة إلى الإيمـان، عنـدما يقابلـه المسيح ويصير بولس العظيم.

وأنـت علـى قـدر اتـضاعك كـل يـوم، أمـام الله فـى الـصلاة واتـضاعك أمـام الكل، يكشف الله لـك حيل إبليس، فتحترس منـها،

كما أعلن الله للقديس العظيم الأنبا أنطونيوس، عندما رأى فخاخ الشياطين تملأ البرية وخاف على أولاده من السقوط فيها، فقال له الله المتضعون يفلتون.

وإذا سقط الإنسان فى خطية، فمن أجل اتضاعه يكشف له الله بشاعتها، فيتوب ويستعيد نقاوته.

2- يرفع البلايا :

إن المتضع يلتجئ إلى الله فى ساعة الضيقة ويلح عليه بلجاجة، لينقذه، مثلما فعلت الأرملة مع قاضى الظلم. والله يعد بأن يرفع الظلم عن الملتجئين إليه، بل أكثر من هذا ينجيهم من البلايا، التى نتجت عن خطاياهم، كما أنقذ إبراهيم فى مصر، عندما أُخذت منه زوجته سارة، مع أنه كان قد كذب وتخاذل ولم يعلن أنها امرأته، خوفاً على حياته.

وتتعاظم عطايا الله للمتضعين، فيبعد عنهم البلايا، فلا تواجههم، أو تؤذيهم، إذ يحمل الله المتضع على يديه؛ لئلا تصدم بحجر رجله، فيمر بسلام ولا يخشى من الضيقات، حتى إن عبر فى وسطها، فإن سار فى وادى ظل الموت لا يخاف شراً، وإذا ألقى فى الأتون يجد الله معه، وإذا سقط فى جب الأسود يحميه الملاك، فوعد الله واضح أنه "ينجى الفقير المستغيث والمسكين إذ لا معين له" (مز72: 12) ويقول أيضاً "كثيرة هى بلايا الصديق ومن جميعها ينجيه الرب" (مز34: 19).

لذلك لا يخاف المتضع؛ لأن الله يرفع البلايا من طريقه. وإن أبقاها؛ فلكى ما يحفظه أثناءها ويظهر عظم محبته ورعايته له.

3- يعزى فى الضيقات :

إن الله يخص المتضعين بتعزيات فى حياتهم عموماً وخاصة فى الضيقات. فبولس الرسول يعلن أن الله يعزى المتضعين (2كو7: 6)، ثم إن حلت بهم ضيقات يستخدمها الله لتثبيتهم فى الإيمان، ثم يختبرونه فى حياتهم، فدانيال المتضع ينقذه الله من الموت، هو والثلاثة فتية، عندما كشف له حلم نبوخذ نصر، بل وأنقذ معه كل حكماء بابل.

ففى الضيقة يشعر المتضع أن لا رجاء له إلا الله، فيتجلى له الله ويشعر بمعونته، بل ويتعزى بحضرته، كما شعر أرميا بالله وهو فى السجن، فتعزى قلبه وتحول السجن إلى مكان يلتقى فيه بالله، أى صار ملكوتاً له. وبولس وسيلا – فى السجن أيضاً – عندما سبحا الله، ظهر لهما فى الزلزلة وانفتاح أبواب السجن، ثم إيمان السجان. أما الشهداء، مثل مارمرقس، فظهر لهم المسيح بنفسه وعزاهم وشفى جراحاتهم وبشرهم بقرب ارتفاعهم إليه.

إن الله أقرب ما يكون إليك فى ساعة الضيق وينتظر اتضاعك عند قدميه؛ ليعلن لك ذاته ويعوضك عن كل أتعابك؛ حتى أنك تكاد تقول لله : لا ترفع عنى الضيقة لئلا أحرم من رؤيتك، أو على الأقل تقبل الضيقة؛ لأنك ترى الله فيها أكثر من أى وقت آخر؛ لأنك عندما تتضع وتقبل الإهانات وتكون عند أقدام الكل، ستنكشف

الرؤية أمام عينيك، فترى المسيح جالساً على الأرض، فى اتضاع، يغسل الأقدام، فتتمتع بمشاهدته وتفرح بعشرته بعيداً عن الأعين، وإذ يراك الكل منكوباً، تكون أنت فى أحلى لحظات حياتك؛ لأنك تكون ملتصقاً بالله، الذى صرت معه عندما اتضعت.

4 - يمهل للتوبة :

عندما تتضع أمام الله مهما كانت خطاياك؛ فإنه حتماً لا يهلكك، بل يعطيك فرصة للتوبة، كما فعل مع آخاب أشر ملوك إسرائيل، فلم يجلب العقاب فى أيامه؛ لأنه اتضع وأعطاه فرصة للتوبة وأعلن له ذلك على فم إيليا النبى، إذ قال الله لإيليا "هل رأيت كيف اتضع آخاب أمامى، فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه" (1مل21: 29).

والله يسمح بضيقات لأولاده؛ حتى يتضعوا، فيتخلصوا من خطاياهم، كما يقول يشوع بن سيراخ "المرضيين من الناس يمحصون فى أتون الاتضاع" (سيراخ 2: 5). فالضيقة علاج وكشف لخطايا الإنسان، عندما يتضع يرفعها الله عنه، ويتنقى من خطاياه. وهكذا يتقدم فى طريق التوبة، وتكون الضيقات وسيلة وفرصة لتوبة المتضعين.

وإذا استغل الإنسان فرص التوبة يطيل الله أناته عليه، حتى يخلص من كل خطاياه، فبطرس المندفع يعطيه المسيح فرصاً كثيرة؛ ليصير فى النهاية، ليس فقط تائباً، بل رسولاً عظيماً.

5- يصفح عن الأثام :

الاتضاع يجلب فيض حنان الله، فيحدث عروس النشيد ويقول لها "حولى عنى عينيك فإنهما قد غلبتانى" (نش6: 5)، فدموع المتضعين لا يحتملها حنان الله، فيصفح لهم عن خطاياهم.

ومهما كانت بشاعة الخطايا، فالله لا يستطيع أن يرد المتضعين، إذ هو يحبهم جداً، فعندما اتضع داود، معلناً توبته، رفعها عنه الله، مع أنها كانت خطية زنا وقتل. وعندما صعدت شرور أهل نينوى إلى السماء وتابوا باتضاع فى التراب ولبسوا المسوح، صفح الله عنهم. وكذلك منسى الذى تمادى فى الشر عشرات السنين، عندما قبض عليه ونقل إلى بابل وألقى فى السجن، اتضع بتوبة شديدة، فصفح عنه الله وأعاده إلى عرشه؛ فأزال الأوثان وعاش لله.

وحتى لو كان الإنسان وثنياً، مثل نبوخذ نصر، فعندما اتضع سبع سنوات وتاب، صفح عنه الله وأعاد له عقله واتزانه وأرجعه إلى عرشه.

إن أقصر طريق إلى قلب الله هو الاتضاع، فلا تخاف من كثرة خطاياك، بل اتضع أمامه وثق أنه يقبلك.

6- يشبع الجوعان :

إن عطايا الله لا تقتصر على رفع الضيقات، أو الصفح عن الخطايا، بل تتعداها لتشبع النفوس الجائعة إليه، فهو يخص أولاده ببركات كثيرة تكفيهم؛ حتى لا ينظروا إلى العالم ويسقطوا فى فخاخ إبليس، أى لا تستطيع إغراءات العالم أن تبعدهم عن الله، إذ يرون فيه كفايتهم، حتى لو سار العالم كله وانغمس فى اللذات

الزائلة فإن علاقتهم بالله تكفيهم، فالله يعدهم بأنه "لا تستقر عصا الأشرار على نصيب الصديقون لكيلا يمد الصديقون أيديهم إلى الأثم" (مز125: 3).

والشبع ليس فقط يحمى المتضعين من السقوط فى الخطايا، ولكنه يدفعهم فى طريق محبة الله، فيطلبون المزيد، كما يقول "يأكل الودعاء ويشبعون يسبح الرب طالبوه تحيا قلوبكم إلى الأبد" (مز22: 26). وكذلك يعد المتضع "يشبع بالخير عمرك فيتجدد مثل النسر شبابك" (مز103: 5)، أى يتقدم المتضع فى الصلاة والتسبيح وتتجدد أشواقه نحو الله طوال عمره؛ حتى يصل إلى التسبيح الدائم فى ملكوت السموات.

إن كنت تعانى من العطش والجوع إلى الله، فاسجد أمامه وتضرع إليه؛ ليهبك حرارة فى الصلاة ويفتح ذهنك؛ لتفهم كلامه وتتأمل فيه، اطلب منه، فهو أبوك السماوى، الذى يريد أن يعطيك أكثر مما تطلب أو تفتكر، فتشبع وتفرح.

7- يهب الحكمة :

المتضع يعلن ضعفه أمام الله واحتياجه، فيمتعه الله بالحكمة والتمييز والإفراز، فيجد طريقه بسهولة نحو الله ولا يضطرب مع أهل العالم، فيجاهد ويتقدم بخطوات ثابتة نحو الملكوت.

والمتضع أيضاً عندما ينال الحكمة يصبح أهلاً لأن يخدم غيره ويقودهم ويرشدهم فى الطريق لله. والله يدعونا على لسان بولس الرسول أن نكون "منقادين إلى المتضعين لا تكونوا حكماء عند أنفسكم" (رو12: 16) فالمتضع يقود بسهولة غيره؛ لأنه هو صاحب الحكمة الحقيقية وليست حكمة العالم وذكاؤه الباطل.

أما سليمان فى النهاية فيعلن "تأتى الكبرياء فيأتى الهوان ومع المتواضعين حكمة" (أم11: 2).

أن سليمان عندما اتضع أمام الله وطلب حكمة ليقود شعبه، أعطاه الله بسخاء حكمة أكثر من كل من قبله، أو بعده. والله هو هو أمس واليوم وإلى الأبد، فلا تقف حائراً، أو تعانى من الضيق وحدك، بل اطلب إرشاده؛ لأنه يحب المتضعين ويسرع لقيادتهم بحكمته؛ فيفرحوا دائماً.

8 - يمجده بالعطايا :

تزداد عطايا الله للمتضعين، فيهبهم سلاماً لا يتذوقه غيرهم "لا سلام قال الرب للأشرار" (أش48: 22).

ويعطيهم أيضاً أن يعاينوا الله فى كل الوجوه المحيطة بهم وفى الأحداث، بل وفى الطبيعة أيضاً، فيتمتعون بيد الله المحيطة بهم.

ولرؤيتهم لله يكتشفون يده فى أصغر العطايا، فيفرحون بها، فى حين أن غيرهم لا يستطيعوا التمتع بالعطايا الأكبر، التى لديهم.

وبهذا يتأهلون إلى ما لا يعبر عنه وهو العطايا السماوية فى الملكوت وانقضاء هذا الدهر؛ لأن الشرط الأول للدخول للسماء هو الاتضاع "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات" (مت5: 3). ووعد الله واضح للمتضعين "الوضيع الروح ينال مجداً" (أم21: 24).

فالأمجاد التى يهبك إياها الله لا تقتصر على السماء فقط، بل أيضاً طوال حياتك على الأرض يمجدك ويفرح قلبك، وأحياناً يلاحظ ذلك الناس، فيطوبونك. وأحياناً أخرى يهملونك، فتتمتع بمجد أعظم فى الخفاء، بينك وبين الله. إن عشرة الله هى المجد الحقيقى فى الأرض وفى السماء.

كان هذا الرجل عاملاً عند أحد التجار المهتمين ببيع المجوهرات وكان يساعده فى أمانة وتدقيق ويخضع لأوامره ويحتمله فى غضبه وفى نفس الوقت كان مرتبطاً بالكنيسة، مهتماً بصلواته وقراءاته فى الكتاب المقدس.

مرت السنين وشعر التاجر بأمانة مساعده، فأشركه فى العمل والأرباح؛ حتى صار هذا المساعد غنياً أيضاً. ثم مات التاجر وعمل مساعده فى تجارة المجوهرات. اتسعت تجارته، فصار من كبار التجار فى مدينته والمدن المحيطة به.

كان هذا الرجل يشكر الله دائماً وينسب الفضل له وكان متضعاً فى كل تعاملاته مع الآخرين، فأحبه الكل. وفى نفس الوقت تميز بعمل الرحمة فى الخفاء، فكان يساعد كل من يجده فى حاجة.

لم تشغله التجارة عن حياته الروحية، فإلى جانب اهتمامه بعبادته كان يعيش فى نسك، مهتماً بأصوامه، يستخدم أقل القليل لاحتياجاته الشخصية، فلم يتعلق بأمواله.

استعد هذا التاجر للسفر إلى مدينة كبيرة؛ ليبيع مجوهراته ويتسع فى تجارته، فركب إحدى السفن ومعه عدد من معاونيه وحمل معه كيساً كبيراً، مملوءً بأغلى المجوهرات.

فى السفينة واصل تاجر المجوهرات عبادته، فكان يقضى أوقاتاً طويلة فى الصلاة والتأمل، ومعاونيه الأمناء يلاحظون المجوهرات.

أثناء تحرك هذا التاجر فى السفينة، التقى بأحد العاملين فيها ووجد وجهه كئيباً، فسأله عن أحواله؛ لأنه كعادته كان يهتم بكل إنسان فى ضيقة، فعلم التاجر من هذا العامل أنه يعانى من معاملة سيئة من رؤسائه على السفينة ويحتمل، رغم أن أجره زهيد ولكنه لا يجد عملاً آخر، فشجعه التاجر أن يتمسك بالله ويصلى والله قادر أن يدبر له عملاً آخراً، بل وعده أيضاً أنه عند وصولهم إلى المدينة، التى يقصدونها وبدء تجارته، أن يعطيه فرصة ليعمل معه، فشكره العامل جداً وبدأت الابتسامة تعود إلى وجهه.

مرت أيام على السفينة فى البحر، شعر أثناءها البحارة أن هذا التاجر يحمل مجوهرات غالية كثيرة، فحرك الشيطان قلوبهم؛ ليقتلوا هذا التاجر ومن معه من المعاونين ويلقون جثثهم فى البحر ويستولون على المجوهرات.

استمر التاجر فى صلواته واتضاعه فى تعامله مع الكل وطلبه من الله أن يحفظ حياته ويوصله إلى الملكوت، فكان شغله الشاغل هو حياته الأبدية.

شعر العامل المظلوم بالإشفاق على هذا التاجر الطيب، فأسرع إليه يحذره من المؤامرة المدبرة ضده لقتله هو ومن معه، مع أن هذا يعرض العامل المظلوم للقتل هو أيضاً ولكنه شعر – بعد أن صلى – أنه من الأمانة أن ينقذ هذا التاجر الطيب.

بعد صلاة طويلة جمع التاجر معاونيه وطلب منهم أن يطيعوه فى كل ما يأمرهم به مهما كان غريباً؛ لأن فى هذا إنقاذ لحياتهم من الموت. فأعلنوا خضوعهم له.

أمر التاجر معاونيه أن يحملوا كيس المجوهرات وصعدوا به إلى سطح السفينة أمام كل البحارة، ثم فرشوا ملاءة – كما أمرهم التاجر – أفرغوا عليها كل ما فى كيس المجوهرات، فلمعت أعين الكل وانبهروا من شكلها، ثم أمر معاونيه أن يمسكوا بأطراف الملاءة الأربعة ويلقونها بكل ما تحمل من مجوهرات ثمينة فى البحر، وسط دهشة الجميع.

فهم البحارة أن التاجر قد شعر بمكيدتهم، أو استنتجها وشعروا أن شرهم وطمعهم كان هو السبب فى ضياع هذه الثروة العظيمة، فنخسوا فى قلوبهم وذهبوا إليه معتذرين ومعلنين ندمهم، فسامحهم التاجر، بل قال لهم كلاماً غريباً على أذهانهم، إذ شكرهم أنهم قد خلصوه من هذه الثروة، التى يمكن أن يحاربه الشيطان بها وقد يبعده عن الله بسببها.

ذهب التاجر إلى حجرته مصلياً وشاكراً الله، أنه أرشده بحكمة؛ ليحافظ على حياته ولعله أنقذه ليس فقط من الموت، بل من محبة المال.

عندما وصلت السفينة إلى الميناء، ذهب هذا التاجر العظيم ليعمل عند أحد التجار زملائه، أى عاد عاملاً ومساعداً بعد

أن فقد ثروته والتمس من أصدقائه التجار، فالحق بهم معاونيه وهذا العامل المظلوم، الذى كان يعمل على السفينة، فدبر لهم جميعاً فرصاً للعمل.

عاش هذا التاجر حياة متواضعة جداً وشكر الله الذى خلصه من الاهتمام بالتجارة العظيمة وأعطاه وقتاً؛ ليقضيه فى صلوات أكثر وتمتع بعشرة أعمق مع الله وزاد اتضاعاً، حتى كان نوراً لكل من حوله وقدوة فى الاتضاع واحتمال الضيقات ومثالاً لكل من يهتم بحياته الأبدية.

الفصل الثالث
تقييد الشيطان

الفصل الثالث
تقييد الشيطان

يبدو الشطيان بقوته المتفوقة – كملاك عظيم قد سقط– أنه جبار ويقدر بسهولة أن يذل الإنسان ويخضعه. والحقيقة يعلنها القديس العظيم الأنبا أنطونيوس أن الشياطين جبناء ولا يخيفون إلا الجبناء، ولكن إن تسلح الإنسان بقوة الله، يستطيع أن يخيف الشياطين. والسلاح القوى الذى يقهر الشيطان، هو الاتضاع. ويظهر سلطانه فيما يلى :

1- استسلام وضعف :

إن الشيطان بإمكانياته المتميزة عن الإنسان فى العقل، والحركة السريعة، يقدر أن يسبق الإنسان فى كل شئ، ولكنه فى الحقيقة ضعيف جداً أمام الإنسان المتضع، فالشيطان يستطيع أن يتفوق على الإنسان فى كل الأعمال الظاهرة، إلا الاتضاع؛ لأن أساس خطيته هى الكبرياء. وعندما أسقط الإنسان كان فى خطية الكبرياء، ولكن المتضع يتمسك بالله؛ فينال قوته وحينئذ يخاف منه الشيطان، بل ويستطيع الإنسان المتضع أن يحب الله بسهولة، فيثبت فى اتضاعه.

فلا تنزعج من قوة الشيطان وحروبه، إنما تستطيع أن تقهرها بسهولة، عندما تضع أمام الله والناس، وأمامك مثال واضح فى الاتضاع هو الأنبا أنطونيوس العظيم، عندما اتضع أمام الشياطين، فقال لهم أنا أضعف من أصغركم، فولوا هاربين منه، إذ لم يحتملوا قوة اتضاعه.

وقد أعلن الشيطان بوضوح للقديس أبو مقار، أنه متفوق عنه فى الممارسات الروحية، مثل الصوم والسهر ولكنه عاجز أمام

اتضاعه، فمهما كان خطاياك وتغلب إبليس عليك، أسرع إلى التوبة المتضعة فى صلوات ومطانيات، بل ودموع، فيهرب منك الشيطان وتدوسه باتضاعك، أى بقوة المسيح، الذى يسكن فيك؛ لأجل اتضاعك ويقبل توبتك ويبررك.

2- التجاء لله :

المتضع يعرف يقيناً أنه ضعيف، لذا يلتجئ سريعاً إلى الله بالصلاة. وعلى قدر احساسه بالاتضاع، سيكون متمسكاً بالصلاة، وبالتالى يعمل الله فيه بقوة؛ فيقيد الشيطان ويبطل كل أعماله.

وقد عرف بولس الرسول هذا الأمر، فافتخر باتضاعه؛ لأن فيه نوال قوة الله؛ إذ قال "فبكل سرور افتخر بالحرى فى ضعفاتى لكى تحل على قوة المسيح" (2كو12: 9).

وعندما يلتجئ الإنسان المتضع إلى الصلاة وينال قوة الله، يشعر بعظمة الحضرة الإلهية فى الصلاة، فيزداد اتضاعه وبالتالى يزداد تمسكه بالصلاة. وهكذا ينمو فى الصلاة والاتضاع، بلا قيود، مما يجعله قادراً أن يقيد الشيطان ويدوس كل قوته.

اعلم أن إسراعك إلى الصلاة يحميك من فخاخ كثيرة للشياطين، لا تعرفها وينجيك الله منها دون أن تشعر؛ لأجل اتضاعك وصلواتك.

وعندما تصلى بانسحاق، تستدر مراحم الله بغزارة، كما تذلل حزقيا الملك أمام تهديدات جيش الأشوريين، فأتاه أشعياء برسالة قوية من الله، يطمئنه فيها وفى نفس الليلة قتل ملاك الرب 185000 جندياً من جيش الاشوريين، وسنحاريب ملكهم، قتله إبناه فى معبد إلهه (2مل19).

3- شركة المصلوب :

أظهر المسيح إلهنا اتضاعه الكامل على الصليب، عندما تخلى عن كل مجده؛ لأجل خلاصنا، فحطم كبرياء الشيطان وقيده وبموته داس شوكة الموت، التى يتفاخر بها إبليس، ويضم الكثيرين من البشر الساقطين إليه.

أما الإنسان المتضع، فإنه باتضاعه يشارك المسيح المصلوب آلامه، عندما يتخلى عن الكرامة ويحتمل الإهانة، فيقيد الشيطان المتكبر ويمنع حروبه.

لذا فحمل الصليب وتعليقه أمام عيوننا فى الكنيسة وفى كل مكان يدعونا إلى الإتضاع، فنقيد إبليس من جهتنا ويهرب منا.

وعندما يقيد إبليس بالاتضاع مع المصلوب، تنفتح للإنسان طاقات الحب الإلهى، فيتمتع بعشرة الله، مما يزيده تمسكاً بالاتضاع، هذا ما اختبره الرسل والشهداء والقديسين على مر الأجيال وحتى الآن.

4 - بطلان الإغراءات :

إن الشيطان فى بجاحته يعلن إغراءاته للإنسان، مستغلاً ضعفه، لوجوده فى الجسد بغرائزه المختلفة، ويكثر الساقطين بإغرائه، مما يزيده تمسكاً بها. ولكن تبطل كل هذه الإغراءات أمام الإنسان المتضع، إذ يرى بشاعتها وكيف تفصل بينه وبين الله فيرفضها، حتى لو سقط فيها مرات كثيرة، يتجدد بالاتضاع نشاطه، فيقاوم هذه الإغراءات، مهما كانت قوية ومحكمة ولا سبيل للنجاة منها. ولكن ثقة المتضع فى قوة الله المساندة، تعطيه القدرة على التخلص منها، كما هرب ورفض يوسف كل إغراءات الشيطان على لسان امرأة فوطيفار.

ولأن الإنسان المتضع لا تهمه كرامة العالم، فهو مستعد أن يبيع كل شئ ويظهر كأنه أحقر إنسان فى العالم؛ لأجل تمتعه بالتوبة والاتضاع أمام الله، كما قبل يوسف الاتهامات الزور والسجن وفضل ذلك عن قبول الإغراءات المتاحة أمامه.

حاسب نفسك كل يوم واتضع فى صلاة؛ لكى يبعد الله عنك إغراءات الشيطان ويعطيك قوة لترفضها، فلا تخجل أن ترفض هذه الإغراءات ولا تتأثر ببجاحة الشيطان. لا ترضِ الناس على حساب الله، مهما شجعوك على قبول الخطية؛ لأنه "ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس" (أع5: 29).

5- إنفضاح الحيل :

إذ علم الشيطان بأن الإنسان الروحى يسعى لاكتساب الاتضاع، متعلماً من المسيح نفسه، الذى قال "تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" (مت11: 29)، لذا يتحايل الشيطان بطرق ملتوية؛ ليخدع الإنسان؛ حتى يسقطه فى كل الخطايا، ولكن أمام الاتضاع ينفضح الشيطان ويظهر الله للمتضع حيل إبليس، فيرفضها، كذلك بتمسك المتضع بوصايا الله يتغلب على حيل إبليس، حتى لو لم يكن منتبهاً إليها ولكن يكفيه فقط تمسكه بالاتضاع ووصايا الله.

ويتمادى الشيطان فى حيله، فيحاول جذب الإنسان إلى الاتضاع المزيف، فكأنه يشجع الإنسان على الاتضاع ولكنه فى الحقيقة يدعو الإنسان إلى التظاهر بالاتضاع؛ ليسقط فى الكبرياء، وهذه أيضاً من السهل انفضاحها أمام المتضع؛ إذ يكشف له الله حيل إبليس، فيرفض مظاهر الاتضاع الجوفاء ويرفض كذلك المغالاة فى الممارسات الروحية (الضربات اليمينية)، متمسكاً بالخضوع لأب الاعتراف، فيخاف منه إبليس ويتركه.

إن المتضع ليس محتاجاً أن يجهد نفسه بالبحث عن حيل إبليس؛ لأن الله مسئول أن يفضحها أمامه، فهو يجاهد فقط فى الاتضاع، فيهبه الله حكمة وتمييز تفوق أذكى الأذكياء.

6- الإسراع بالتوبة :

المتضع لا يسقط؛ لأن الله يحميه من الخطية، لكنه عندما يتهاون يسقط فى حيل إبليس ولأنه تعود التواضع لا يرتاح إلى الخطية التى سقط فيها، فيسرع إلى التوبة؛ ليستعيد مكانه الطبيعى المريح وهو الاتضاع.

إن التائب الذى يشعر ببشاعة خطاياه، يسرع إلى للاتضاع بعمق، إذ تأكد من ضعفه وبالتالى ينال مراحم الله.

وهكذا نجد ارتباطاً شديداً بين التوبة والاتضاع، أى أن التوبة الحقيقية لابد أن تستند على الاتضاع، فالاتضاع هو العلامة التى تبين صدق التوبة.

لا تخاف من سقطاتك، بل تذلل من أجلها أمام الله؛ لأنه يقبلك ويفرح باتضاعك فى التوبة أمامه، بل وتستطيع أن تشجع غيرك فى طريق التوبة والاتضاع.

7- الاستنارة بالإرشاد :

المتضع يشعر بحاجته إلى التعلم والتلمذة على يد الكل؛ لأنه يشعر أنه أحقر الكل، فيتتلمذ على يد أب اعترافه وكل الآباء والإخوة الروحيين، بل على كل فضيلة يلاحظها فى أى إنسان ويتتلمذ أيضاً على أيدى الطبيعة والأحداث، إنه مستعد أن يتعلم من الحشرات مثل النملة، كما أعلن سليمان الملك (أم6: 6).

والمتضع مستعد أن يطيع إرشادات أب اعترافه، مهما كانت تبدو شديدة، أو منافية لأفكاره وعقله، فيتأهل للاستنارة الروحية؛ ليفهم ما لا يفهمه غيره ويتمتع بعشرة الله.

المتضع الذى يهتم بالتلمذة ينمو سريعاً، متخطياً العقبات، إذ يرى المسيح واضحاً أمام عينيه، فيخافه ويحبه ويسعى لإرضائه، بل يتمتع برؤية الله، التى تفوق كل رؤية ويحب الاتضاع؛ لأنه طريقه إلى هذا التمتع الإلهى.

عاش هذا الراهب سنوات فى البرية وكانت تقاتله أفكار الشهوة، فيطردها ولكنها كانت تعاوده مرات كثيرة. وازدادت هذه الحروب عليه، حتى صارت صلواته وأصوامه ضعيفة أمامها.

بدأ الشك يحاربه واليأس يضغط عليه، حتى شعر أن رهبنته خاطئة وأنه قد دخل خطأ فى الدير، وأنه لا يصح أن يظل فى هذا المكان المقدس؛ لئلا ينجسه.

ازدادت حروب الشهوة واليأس عليه، حتى قرر فى النهاية أن يترك الدير وينزل إلى العالم، ولم يستشر أبوه الروحى؛ لأنه قال فى نفسه، إنه سيشجعنى مثل كل مرة ولكنى متيقن أنى غير أهل للاستمرار فى البرية وحياة الوحدة، وترك كل شئ ونزل إلى العالم.

بدأ يمارس أعمال العالم، ليقتات ويجد احتياجاته والتحق بأحد الأعمال ونجح فيها، ثم بدأ يفكر فى الزواج؛ ليستقر فى العالم ولعل أفكار الشهوة تبتعد عنه.

قابل فى السوق فتاة جميلة، فأعجب بمنظرها واستمر يلاحظها فترة من الزمن، فأعجب بسلوكها وقرر الزواج منها.

سأل عنها واكتشف أنها ابنة كاهن للأوثان، ولكن شهوته التى حركها الشيطان بقوة جعلته يتعلق بها وفى يأس استهان بكل شئ، فكما ترك الدير، أعلن بينه وبين نفسه استعداده لترك المسيح والتزوج بهذه الوثنية؛ لأجل جمالها الذى اجتذبه بشدة إليه.

ذهب إلى والدها وطلب الزواج منها، فأعجب الوالد بعمله وبمنظره وشخصيته ووافقت الفتاة عليه. ولكن طلب والدها الكاهن فرصة؛ ليسأل آلهته التى يعبدها – أى الشياطين – هل توافق على هذا الزواج، أم لا ؟ فاستمهل الراهب فترة من الزمن، يعود إليه الراهب بعدها؛ ليعرف إجابة الشياطين.

عندما سأل الكاهن الشياطين قالوا له : لكيما يتزوج ابنتك الجميلة ينبغى أن يتمم ثلاثة شروط هى :

1- ينكر مسيحه

2- يجحد معموديته

3- يرفض ويرذل عهد رهبنته

أخبر الكاهن الراهب بهذه الشروط وللأسف وافق هذا المسكين على شروط الشياطين وأنكر وجحد ورفض كل علاقته بالمسيح وتمم الشروط الثلاثة فى استهانة ويأس؛ لانغماسه فى شهوة النساء.

طلب الكاهن التأكد من موافقة الشياطين على الزواج وأخذ مهلة أخرى من الراهب وعندما عاد إليه الراهب، أخبره أن الشياطين رغم اتمامك شروطها رفضت هذا الزواج؛ لأنها قالت أنه يمكن أن تتوب وترجع عن عهودك وتخضع لله؛ فيقبلك؛ لأن نعمة الله مازالت معك وهو يحبك ويريد خلاصك وبهذا ترفض الشياطين، فتترك ابنتى الجميلة، بعد أن تكون قد تزوجتها.

عندما سمع الراهب هذا الكلام، نُخس فى قلبه بشدة، إذ رأى أن كل شروره لم تبطل محبة الله له وشعر أيضاً بضعف الشيطان أمام محبة الله وقوته، التى يمكن أن تعيده إلى حياته الأولى بالتوبة وانتبه إلى نفسه وترك كاهن الأوثان وعاد إلى منزله فى المدينة وأخذ يصلى بدموع، أمام الله؛ ليقبله. وقضى ليلته فى ميطانيات وصلوات، بعد أن تجدد الأمل فى داخله، أن الله يحبه ويريد توبته.

فى اليوم التالى قرر بشجاعة أن يترك العالم وعمله فى هذه المدينة ويعود إلى البرية وذهب إلى أحد الشيوخ وأخبره بكل ما حدث له.

شجعه الشيخ وطمأنه أن الله ما زال يحبه، وأنه يمكن أن يعود إلى حياته الروحية الأولى، وأن الله قد قبل توبته ولكنه سيكمل جهاده، ليبعد عنه حروب الشياطين ويتشدد فى الإيمان.

أعلمه الشيخ أن الاتضاع هو وسيلته لقهر الشيطان وأمره بالصلاة فى مواعيدها فى قلايته مع أصوام ثقيلة وأن يظل بجوار الشيخ، الذى سيشاركه الصلاة، فيصلى من أجله؛ حتى يشعر بارتياح ويعود فيتمتع بعمل نعمة الله فيه.

تذلل هذا الراهب أمام الله فى ميطانيات كثيرة كل يوم وصلوات الأجبية وكان يصوم حتى المساء. ومع الدموع بدأ يشعر بالرجاء متزايداً فى الحياة الجديدة مع الله.

بعد أسبوعين التقى بالشيخ، كما اتفق معه، وسأله الشيخ عن أحواله، فقال له أنه بدأ يشعر بشئ من الهدوء، وخاصة كلما سجد على الأرض وأنه رأى حمامة تطير فى السماء أمامه كلما أكمل صلاته، فأعلمه الشيخ أن هذه الحمامة هى الروح القدس، الذى ينظر إلى تعبه وجهاده وسيرفع عنه حروب إبليس. وأعلمه أن صلواته وأصوامه تقيد الشيطان وتبعده عنه، فطلب الراهب الشاب من الشيخ أن يسمح له أن يصوم يومين يومين، فسمح له.

تضاعف جهاد الشاب وبدأت الثقة تزداد فى داخله وفى نفس الوقت ازداد انسحاقه أمام الله، إذ شعر ببشاعة خطيته، فكان يبكى كثيراً، طالباً الغفران. وكان يشعر بمساندة تشجعه على مواصلة جهاده، قال فى نفسه أنها غالباً صلوات أبى الشيخ.

بعد أسبوعين التقى ثانية بالشيخ وأخبره بأحواله وقال له أن الحمامة وقفت على رأسه ولكنها طارت سريعاً، لما حاول إمساكها، فقال له الشيخ إن الروح القدس، الذى هو هذه الحمامة يحبك واستقر على رأسك ولكنه تركك، إذ أنت محتاج أن تواصل جهادك. وأن توبتك تزداد وتقربك من الله.

غاب الشاب أسبوعين أيضاً، ظل فيهما فى جهاد شديد وانسحاق أمام الله، بعدهما ذهب إلى الشيخ وأخبره أن الطمأنينة زادت فى داخله، وأنه رأى الحمامة قد استقرت على رأسه، ثم دخلت من فمه إلى داخله. ففرح الشيخ وبشره بأن الروح القدس قد بدأ يعمل فيه بقوة وأنه عاد إلى رهبنته الأولى وأن الله معه؛ ليبدأ حياة جديدة، أكثر عمقاً واتضاعاً، إذ تحولت سقطته العظيمة إلى اتضاع وجهاد شديد قيد الشيطان. وأخذ هذا الراهب ينمو بخطى واسعة فى طريق الملكوت ولم تعد الحروب الشهوانية تهاجمه، إذ رفعها الله من أجل اتضاعه وأصبح مثالاً للتوبة الصادقة الأمينة.

الفصل الرابع
كسب الآخرين

الفصل الرابع
كسب الآخـريـن

غالباً ما تكون الصدامات بين الناس بسبب الكبرياء، فكل إنسان يبحث عن كرامته، فإذا انتفت الكبرياء، يسهل تلاقى الناس. وإن وجد إنساناً متضعاً يستطيع أن يكسب كل من حوله بفئاتهم المختلفة وظروفهم المتغيرة. فكيف يكون ذلك ؟

1- تشجيع المحتاجين :

نتيجة ضغوط الحياة وعجز الإنسان عن تحقيق أهدافه، يعانى الكثيرين من صغر النفس والبعض يشعر أنه أقل من الباقين، نتيجة ظروفه الصعبة ويشمل ذلك الفقراء والمرضى والمجربين وكل من يعانون من متاعب نفسية، أو ظروف معاكسة، فهؤلاء معظمهم يميل إلى الانكماش والتباعد عن الآخرين، وهنا يظهر دور الإنسان المتضع، الذى يضع نفسه تحت الكل، فلا يخاف منه أحد، بل باتضاعه يشجعهم على التعامل معه. وإذ يقترب منهم لا يرفضونه ويتكوين علاقات معهم، يدب الرجاء فيهم، بل ويشعرون بمحبة الله لهم، فى شخص هذا المتضع، فيقتربون من الله ويحبون الصلاة وكلمة الله ويسيرون فى طريق الحياة الروحية.

إن داود المطارد من شاول، فى احتمال واتضاع، شجع باتضاعه الكثيرين المرفوضين أن يأتوا إليه، فرعاهم بمحبة، بل صاروا فيما بعد جيشاً كبيراً، استطاع أن ينتصر فى حروب كثيرة.

وبولس المسجون، اجتذب الكثيرين إليه، فآمنوا بالمسيح، بل صاروا خداماً ومكرسين، مهما كانت حياتهم بعيدة عن الله، مثل أنسيمس.

2- احتمال المتكبرين :

إن المتكبر إنسان مكروه من الآخرين، لأجل معاملته القاسية لغيره، فيتباعد الناس عنه، أو يحتملوه؛ لأجل تحقيق أغراضهم، ولكن لا يوجد من يحبه ويصلى لأجله، إلا الإنسان المتضع.

إن الكبرياء لا تعالج بواسطة الكبرياء، ولكن الاتضاع يحطمها، كما تطفئ المياه النيران المشتعلة، ولكن بالطبع النيران لا تطفئها النيران.

المتضع يشعر أن المتكبر إنسان كبير، يحتاج إلى صلاة ومحبة، حتى يشفى من مرضه، مهما بدا هذا المتكبر ذو سلطان.

اتضع واحتمل الغضوبين والمعاندين والعدوانيين، فإنهم مساكين، محتاجين لمحبتك، وتذكر أن المسيح باتضاعه احتمل كل الناس، بما فيهم من يحاولون قتله، حتى مات مصلوباً بأيديهم،

لأجل خلاصك. فمن أجل المسيح احتمل أولاده، وحينئذ يحتملك الله، ويجعل الآخرين يحتملونك فى وقت ضيقك واضطرابك.

3- تقديم الآخرين :

لأجل شعور الإنسان بضعفه ونقصه يعوض ذلك بمحاولة الظهور وجذب الأنظار؛ لذا تجد الكثيرين يتسابقون على الأماكن والمراكز المتقدمة، أما المتضع، فإنه يستطيع أن يكسب الكل؛ لأنه يتخذ لنفسه المتكأ الأخير. وعندما يجلس فى المتكأ الأخير يرى بجانبه المسيح، فيتمتع بعشرته، فهو وإن ظهر مظلوماً، لكنه باتضاعه يصير أسعد الكل بعشرة المسيح.

المتضع يثق فى نفسه؛ لأنه متكل على الله. والله يكمله ويرفعه "أنزل الأعزاء عن الكراسى ورفع المتضعين"(لو1: 52)، لذا فمن السهل عليه أن يتنازل عن مكانه وتقدمه ويعطيه للآخرين، فيفرحون ويكسبهم، فيطيعونه ويجتذبهم إلى طريق الحياة الأبدية.

ليتك تسعى إلى الخفاء وتقدم الآخرين عنك؛ لتكسبهم وتكسب مكاناً قريباً جداً من المسيح.

4- احتواء للتائبين :

إن الإنسان الخاطئ يشعر بالخزى نتيجة خطاياه، بل ويشعر بعدم استحقاقه أن يوجد فى الكنيسة وبين المؤمنين الأطهار، فيكون محتاجاً لإنسان متضع، يحدثه عن محبة المسيح، فلا يعلمه من أعلى، كمن يتكلم من برج، بل يتكلم من أسفل، كشريك فى الضعف أمام حروب إبليس.

لقد ولد المسيح فى المزود؛ ليشجع الكل على زيارته، ليس فقط المجوس البعيدين عن الإيمان بالله، مثل اليهود، بل أيضاً الرعاة، الفقراء، الضعفاء. والمسيح احتمل الاتهامات الزور كخاطئ ومجدف وفاعل شر واقترب من العشارين والخطاة، مثل زكا؛ ليكسب كل هؤلاء.

كن حنوناً على الخطاة؛ لأن الخطية ضعف ولا تنسى أنك قد أخطأت كثيراً فى حق الله وهو يحنو عليك، فاسند الكل باتضاعك وشجعهم بمحبتك.

5- قدوة للعاملين :

عندما ينعم الله ببركة الخدمة على البعض، يحاربهم إبليس أنهم صاروا معلمين ومرشدين لغيرهم؛ ليسقطهم فى الكبرياء ويحرمهم من عمل الله فيهم، واستفادة الآخرين منهم؛ لذا فالمتضع قدوة للخدام فى السلوك الروحى، يتعلمون منه كيف يعاملون الآخرين. وإن أعطى المتضع شيئاً لغيره، يشعر أنه يعطيه من يد الله وأن الله رفعه فوق ما يستحق؛ ليخدم هذه الخدمة.

إن الخدمة بدون اتضاع باطلة، بل تسبب غضب الله وضيق الناس وعلى قدر ما يشعر الخادم أنه تحت الكل، يستطيع أن يخترق قلوب الكل.

ليتك تنتبه إلى أنك مكشوف أمام الناس والملائكة، والله ينتظر منك أن تكون نوراً للعالم باتضاعك، كما كان هو نور العالم باتضاعه.

6- عطاء الفلسين :

لأن المتضع يشعر أنه أقل من الكل، بل وتحت الخليقة كلها، فهو لا يشعر بقوته وإمكانياته الخاصة، ويرى أن كل هذا نعمة من الله وبالتالى فهو مستعد أن يعطى ويبذل كثيراً، بل ويشعر أنه لو قدم حياته كلها، فهى أقل شئ يتجاوب به مع محبة المسيح المصلوب لأجله.

ولأن المتضع يشعر أن ما معه هو من الله، فهو يشعر بقيمة ما معه، حتى لو كان قليلاً جداً مثل الفلسين، فيقدمهما بثقة أن الله يقبلهما، ويعطى من أعوازه؛ ليسد أعواز غيره، واثقاً ان الله لن يتركه، بل يسنده ويقويه ويكفى كل احتياجاته.

وعندما يعطى من أعوازه يحرك أصحاب القلوب الحجرية، إذ يشعرون بمحبته، فيشكرون الله ويشكرونه وبهذا يكسبهم للمسيح.

7- خدمة فى كل حين :

إن المتضع هو الإنسان الذى يستطيع أن يستمر فى محبته لمن حوله وخدمته لهم، مهما تغيرت الظروف، أى لا تستطيع كل العوائق، التى يضعها الشيطان، أن تعطله؛ لأنه لا يطلب مجداً لنفسه من كل علاقاته.

والمتضع أيضاً يستطيع أن يقبل التجرد والترك، فلا تغريه الماديات، وإن قلَّت لا تقلقه، أو تصيبه بالتذمر؛ لأنه منشغل بمحبة الله.

إن قوة الله التى تعمل فى المتضع بلا توقف ويعمل فيه الروح القدس بيسر وسهولة وبالتالى يظل طوال حياته فى محبة وعطاء.

ولأجل اتضاعه يتكيف مع الظروف المعاكسة، فيظل يعطى ويخدم، بما يناسب عمره وإمكانياته، فإن شاخ فى الأيام يظل يعطى رغم ضعف جسده.

والمتضع الخدوم طوال حياته يحمى نفسه من الاكتئاب؛ لأنه يفرح بعمل الله فيه وفى الآخرين، فهو الوحيد الذى ينفذ الوصية "افرحوا فى الرب كل حين" (فى4: 4).

تربى هذا الطفل فى بيت مسيحى، فنشأ يحب الله وتعلم من أمه محبة الصلاة والكنيسة والتناول من الأسرار المقدسة، وتعلم منها أيضاً الإشفاق على الفقراء والمحتاجين؛ لأنها كانت تهتم بهم ولا ترد أحداً. وكان حريصاً عند ذهابه إلى الكنيسة ومدارس الأحد أن يقدم من مصروفه فى صندوق العطاء.

فى أحد الأيام كانت أسرة هذا الطفل مسافرة وفى الطريق اصطدمت سيارتهم بسيارة أخرى وأصيب والده ووالدته ببعض الكدمات والجروح، تم علاجها، أما هذا الطفل ففوجئت أسرته بأنه فقد سمعه بأحد أذنيه، فحزنوا جداً ولكنهم صلوا وشجعوه أن يتكيف مع حياته الجديدة ويواصل دراسته ولعبه بطريقة طبيعية.

رغم تماسك الوالدين، لكن كان هناك حزن دفين فى قلوبهم من أجل ابنهم الطفل، فكانوا يصلون من أجله دائماً؛ حتى يشفيه الله، وهذا ساعد على التصاق الأسرة بالكنيسة أكثر من ذى قبل، ومعهم طفلهم الوديع.

كان هذا الطفل ناجحاً ومتفوقاً فى دراسته وكان محباً لكل زملائه فى الفصل، ولم تتعطل محبته بسبب عجزه عن السمع بإحدى أذنه، فزاد هذا من تقدير مدرسيه له ومحبة الكل.

كان يجلس بجوار طفلنا الحبيب فى المدرسة طفل آخر يعانى من فقر شديد، ظهر على ملابسه وكل تصرفاته، فأحبه طفلنا

الوديع وكان بلطف يحاول تقديم بعض الحلوى له؛ ليشترك معه كل يوم فى طعامه. فزاد هذا من صداقتهما.

اقترب عيد الميلاد المجيد وفكر طفلنا كيف يساعد زميله الفقير. وقال فى نفسه إن والدى سيشترون لى ملابس جديدة فى هذه المناسبة، ولكن زميلى لن يستطيع الحصول على هذه الملابس وأحب أن يقدم لزميله قميصاً وبنطلوناً، ولكنه كان محرجاً أن يقدمهما له؛ حتى لا يجرح مشاعره، أو يشعر زميله بالفقر والاحتياج، فأخذ يفكر فى طريقة لكى يقدم له هذه الهدية، دون أن يعرف من أين أتت إليه.

أخبر طفلنا والدته بما عزم عليه، فشجعته جداً وذهبت معه واشترت الهدية؛ ليقدمها لزميله، فقال لها طفلنا "إنى أريد ألا يعرف زميلى أنى أنا الذى قدمتها له؛ حتى لا يخجل منى وقال لها أنى أود أن أذهب إلى بيته وأضعها أمام باب شقته وعندما يفتح الباب يجد هذه الهدية، فوافقته والدته.

وضع طفلنا مع الهدية كارت معايدة وكان الإمضاء "بابا يسوع"، ثم ذهب إلى منزل زميله ووضع الهدية على الباب وأمه تراقبه من بعيد داخل سيارتها، منتظرة أن يجرى إليها وتأخذه وتذهب بعيداً.

بعد أن وضع الهدية على الأرض أمام الباب، مد يده ليدق الجرس الكهربائى ولكن كان الجرس يخرج منه سلك قد تعرى من

غلافه، فعندما لمس الطفل الجرس أصيب بصعقة كهربائية، فسقط على الأرض.

رأت أمه هذا المنظر، فأسرعت إليه لتحمله، وحمداً لله وجدته سليماً فحملته وذهبت به إلى سيارتها وقادت السيارة بعيداً عن المنزل وهى تسأل ابنها ماذا حدث ؟ فأخبرها أنه شعر بقوة كهربائية تسرى فى جسده، لم يحتملها، فسقط على الأرض. وظل جسم الطفل يرتعش لمدة ولكنه بعد وقت عاد صحيحاً تماماً وشكر الله، وشجعته أمه على احتمال التعب من أجل خدمة زميله.

بعد العيد عاد الأطفال إلى المدرسة، وفيما هم جالسون فى الفصل، قال الطفل الفقير لطفلنا "أنظر كم هو جميل قميصى وبنطلونى، إن الله أرسلهم لى فى هذا العيد" فهنأه طفلنا على ملابسه الجديدة ومدحها كثيراً.

اكتشف الزميل الفقير أن طفلنا لم يدير وجهه نحوه كعادته؛ ليسمع بأذنه الأخرى ولكنه أجاب على الفور، فعلم أن طفلنا قد شفى من مرضه، فهنأه بفرح عظيم، وهنا فقط اكتشف طفلنا أن سمعه قد عاد إليه وأصبح يسمع بكلتا أذنيه، فشكر الله بكل قلبه وانطلق يخبر زملاءه، الذين هنأوه هم وكل مدرسيه.

عندما عاد إلى منزله أخبر والديه، ففرحا جداً وتعجبا لهذه المعجزة وعندما سألا أحد الأطباء المختصين، أخبرهما أن هذه معجزة يندر أن تحدث، إذ استخدم الله الصاعقة الكهربائية فى

استعادة الأذن قدرتها على السمع، بعد أن كان العصب السمعى قد أصيب بشلل، إثر حادث السيارة السابق.

شعر طفلنا ووالديه ببركة محبة الآخرين والإشفاق على المحتاجين، فازداد تعلقهم بخدمة الفقراء وانفتح قلب هذا الطفل الوديع بالحب نحو الكل.

الفصل الخامس
النجـــاح

الفصل الخامس
النجـــاح

يظن البعض أن النجاح يعتمد على قوى مادية وإمكانيات خاصة مبهرة فى شخصية الإنسان، والحقيقة أن النجاح يعتمد فعلاً علـى استعدادات فـى شخـصية الإنـسان، ولكـن قـد تكـون هـذه الاستعدادات خفية عن عيون الكثيرين. من أهم هذه الاستعدادات؛ التواضع، فهو شرط ضرورى للنجاح فى الحياة وتحقيق الأغراض العظيمة. والمتواضع يصل إلى النجاح، كنوع من الأمانة لله فيما أعطاه من إمكانيات، ولا يهمه جذب الأنظار والتفوق على غيره، بل على العكس يميل للخفاء وينسب المجد لله، ولكنه هو المؤهل الأول للنجاحات العظيمة. كيف ؟

1- عمـل اللـه :

المتضع يثق أنـه لا شئ فـى ذاتـه ولكن قوة الله العاملة فيـه. وبالتالى يفسح المكان تماماً لعمل الله فى كل ما تمتد إليه يديه. وذلك من خلال الصلوات الكثيرة والميطانيات، بل يتعود أن يحل مشاكل عمله بالالتجاء إلى الله والدموع المنسكبة.

وتظهر هنا أيضاً أهمية صلوات القديسين المتشفعين أمام الله، فيطلبهم الإنسان المتضع؛ ليعضدوه فى أعماله ويصنعوا عجباً.

وكلما نجح المتضع يرفع الشكر لله، فتزداد مراحم الله وعطاياه له. ويتقدم من نجاح إلى نجاح؛ حتى يكاد يقول لله كفى؛ لان مراحمك قد غطت كل حياتى.

وكلما حقق المتضع نجاحاً عبر عن شكره لله بالإشفاق على الآخرين ومساعدة المحتاجين. وفيما هو يعطى يقول لله "ومن يدك أعطيناك" (1أى29: 14). فيفرح ويفرح قلوب الكثيرين، وقبل الكل يفرح قلب الله.

وإذ يرى الله تمسكه بالاتضاع، مؤكداً بالشكر وعمل الخير، ينعم عليه بالنجاح الروحى، فيعاين الله فى حياته ويشعر بأمور لا يعبر عنها هى ومضات من نور الحياة الأبدية، يختبرها على الأرض، فتزيده تمسكاً بالله، أى يختبر ليس فقط مجرد النجاح المادى، بل بالأكثر النجاح الروحى، الذى يصغر أمامه كل نجاح مادى.

2- عمل بإرشاد :

المتضع يشعر أنه أقل جميع الناس، بل يضع نفسه تحت الخليقة كلها، وبالتالى يشعر باحتياجه أن يتعلم من كل إنسان، بل أيضاً من كل الخليقة حتى الحشرات الصغيرة.

ولاتضاع هذا الإنسان لا يخجل أن يسأل فى كل شئ ويظهر فضل من حوله عليه، فيتعلم من كل من سبقوه وفى مشاكله يلتجئ إلى الآخرين، ليس فقط المتخصصين فى عمله، بل أيضاً كل

ذوى الخبرة فى الحياة، فيزداد حكمة كل يوم، كما خرج القديس أنطونيوس، أب جميع الرهبان؛ ليتتلمذ على أيدى كل الشيوخ، الذين سبقوه وتوحدوا خارج بلادهم، وتعلم حتى من الخطاة مثل الإعرابية، التى كانت تستحم أمامه فى النهر. وظل مداوماً على التلمذة طوال حياته، فتعلم من أناس يعيشون فى العالم، مثل تعلمه من الطبيب والخياط. وفى أواخر حياته ذهب ليتعلم من القديس الأنبا بولا.

المتضع مستعد أن يغير أسلوبه فى العمل، حتى لو استمر فيه مدة طويلة. وهو مستعد أيضاً أن يعتذر عن أخطائه، مما يساعده على التقدم دائماً ومعالجة أى خطأ بسرعة وتطوير نفسه، تبعاً لكل تقدم يحدث فى العالم، فهو أداة طيعة فى يد الله، لا يتعطل بالذات، سواء بالكبرياء، أو صغر النفس، لكنه فى تقدم دائم؛ لأنه ينال إرشاد فى كل حين.

3- عمل صغير :

والمتضع يقبل بسهولة أن يعمل أى عمل مهما بدا صغيراً، أو ذو قيمة قليلة وبنجاحه فى هذا العمل يمكن أن يحقق مكاسب ضخمة، لم يكن يتوقعها أحد. والعالم اليوم يعتبر كثيراً الأعمال المساعدة. التى هى أركان أساسية للأعمال الكبيرة.

وفى الأعمال الصغيرة يعمل المتضع بكل تدقيق وأمانة، فيكشف له الله أموراً تزيده نجاحاً؛ لأنه يضع كل طاقته فيما يعمله، فينتج وينجح ويتقدم.

واهتمام العالم اليوم بالجودة، يؤكد أهمية اتقان أموراً صغيرة، لنجاح المنتجات العظيمة، والتى بدونها يرفض المنتج وتحدث خسارات ضخمة، فالمتضع يتقن ما يعمله، حتى لو بدا تافهاً ولكن فى النهاية تظهر أهميته، ويصل إلى ما يريد من نجاح.

4- عمل لا يهواه :

الإنسان الطبيعى يود أن يعمل ما يرغبه ويستهوى قلبه، أما المتضع فيقبل كل عمل، حتى لو لم يكن جذاباً له، بل أيضاً ما يبدو ثقيلاً عليه. والعجيب أنه عندما يقبل هذا العمل، الذى يرفضه الكثيرون، فإنه يقبله مع الوقت بنعمة الله، بل يحبه ويتفوق فيه ويحقق نجاحاً يرضيه ويرضى الله.

فالاتضاع يحول مشاعر الإنسان من الضيق إلى الفرح؛ لأنه خاضع لله، الذى ينعم عليه بالنجاح فى كل شئ، فيرى كل شئ جميل من يد الله ويشعر أنه غير مستحق لأى عمل، أو نجاح، فتزداد نعمة الله عليه.

المتضع يقبل أن يعمل ما يرفضه الكثيرون وينجح فيه، حتى يشعر الكل بحاجتهم إليه، إذ هم عاجزون بكبريائهم أن يعملوا هذا العمل، أما هو فكل الأبواب مفتوحة له؛ لينجح دائماً.

ولأن المتضع تعلم التنازل عن كرامته، فيستطيع بسهولة أيضاً أن يتخلى عن رغباته، فيصبح الطريق سهلاً بقبول كل عمل، لأنه يشعر أن كل عمل هو نعمة من الله يستخدم فيها إمكانيات الله الموهوبة له، فيشكر وينجح.

5- عمل مع الكل :

قد يرتاح الإنسان لبعض الشخصيات ويتضايق من شخصيات أخرى، أو على الأقل يريد أن يتباعد عنها؛ لأنها شخصيات متعبة فى تعاملاتها، أما المتضع الذى يشعر أنه أقل من الكل، فيقبل التعامل مع الكل وبالتالى يسهل عليه التعاون مع الشخصيات التى يرفض معظم الناس التعامل معها، ويحتمل تصرفاتهم الغريبة ويحقق نجاحاً كبيراً، إذ يستفيد من مواهبهم وقدراتهم.

من ناحية أخرى يعجب به كل الناس؛ لأنه يحتملهم، عكس الباقين، الذين يرفضون التعامل معهم، فيحبون المتضع، بل يصيروا مستعدين لتغيير أنفسهم ولو قليلاً؛ من أجل احتمال المتضع لهم، مما يسهل التعاون معهم.

والله إذ ينظر إلى احتمال المتضع، يعطيه قوة أكبر للاحتمال، واشفاقاً على ذوى الطباع الغريبة والمسيئين، فلا يتضايق منهم وبالتالى يحقق ما يريد وينجح.

إن العالم اليوم يميل إلى التعاون؛ لأن التكتلات الكبيرة تحقق النجاح ولكن هذا يحتاج إلى اتضاع؛ لتحقيقه.

6- عمل إيجابى :

المتضع لا يدين أحداً؛ لأنه أقل من الكل، بل يميل إلى النظر إلى فضائل الآخرين، ويبتعد عن الضيق من السلبيات، باحثاً عن كل عمل إيجابى وبهذا يبحث عما ينجحه ولا يتعطل بسبب

المشاكل والأخطاء، التى يقع فيها هو؛ لأنه يقبل أن يعتذر بسهولة ولا يتضايق من أخطائه ويسرع إلى حلها بالتوبة.

ومن ناحية أخرى لا يتعطل بسبب أخطاء الآخرين، بل يسامحهم بسهولة، إذ يعتبرهم أفضل منه وأنه معرض للخطأ أكثر منهم، لو تخلت عنه نعمة الله. وبهذا يركز اهتمامه على الإيجابيات، التى يستطيع أن ينالها منهم، أو يرشده الله إليها.

7- عمل بلا فشل :

أى عمل معرض للسقوط فى أخطاء ومعطلات، هذه لا تؤرق المتضع، بل يسعى لعلاجها، مهما تكررت، وينشغل بحلها لا بكثرتها.

وتكرار الفشل لا يجعل المتضع يتراجع؛ لأن اعتماده هو على قوة الله وهو متيقن أنه ضعيف، فلا ينزعج من ضعفاته ويثق أن الله قادر أن يصلح أخطائه، ما دام يرجع إليه بالتوبة والصلاة، فيظل مثابراً، معالجاً لضعفاته وعواقبها فى أعماله.

وحتى لو ظلت ضعفاته بلا علاج، فيسهل عليه التكيف معها والبحث عن وسائل لعلاجها، حتى يحقق النجاح فى النهاية؛ معتمداً على آخرين، أو أية فكرة يرسلها له الله.

وإن تعرض عمله لفشل ضخم نتيجة الظروف والتغيرات المحيطة لا ينزعج، بل يقوم من جديد، واثقاً من قوة إلهه التى تسانده، فكما بدأ صغيراً وأنجحه الله، يستطيع أن يبدأ ثانية بقوة

الله؛ لأن اتكاله ليس على ما حققه من نجاح، بل على الله الذى ينجحه، ومهما كان ضعفه، فهو يقبل الفشل الكبير؛ لأنه يعرف أنه ضعيف، فنجاحاته الضخمة لا تغير اتضاعه، وبالتالى الفشل الضخم لا يزعجه ويعاود الجهاد من جديد، فينجح رغم كل المعطلات.

إن المتضع رجاؤه ثابت ولا ينزعج من تشاؤم، أو يأس المحيطين به، بل على العكس، يشجعهم واثقاً من قوة إلهه، التى لا تضعف أبداً.

كان هذا الشماس يعمل فى أحد البلاد الأوروبية، وكان محباً لله وفى نفس الوقت متضع جداً، يقبل أية خدمة من أجل الله.

احتاج الكاهن الذى يخدم هذه المنطقة لمن يساعده فى عمل القربان، فأظهر هذا الشماس استعداده، وبدأ يتعلم من الكاهن كيفية عمل القربان فيما كان يساعده؛ حتى أتقن هذا العمل وصار مسئولاً عن عمل القربان فى كل قداس.

كان الشماس يخبز القربان ويعده، ثم ينام ساعات قليلة، أو لا ينام أحياناً ويذهب إلى الكنيسة؛ ليكون من أوائل الشمامسة المصلين مع الكاهن ويتمتع بالقداس الإلهى. وكان متضعاً يهتم بكل احتياجات الكنيسة، فى ترتيبها ونظافتها ويشعر أنها بركة عظيمة لا يستحقها، فكان محبوباً من الكل، ليس فقط الكاهن، بل الشمامسة وكل الشعب. وكانوا يشعرون بنعمة الله التى فيه.

فى إحدى الليالى، بعد أن أتم الشماس عمل القربان وإعداده، وكان مشاركاً له فى هذه الليلة، الكاهن بنفسه، أخذ الكاهن القربان وذهب إلى الكنيسة، أما الشماس فكان مجهداً، ووجد أمامه فرصة أن يستريح لمدة قليلة، فذهب إلى فراشه؛ لينام. ولكنه عندما استيقظ، فوجئ بأنه قد تأخر فى النوم، فأسرع إلى الكنيسة، فوجد القداس قد ابتدأ وصلى الكاهن والشمامسة رفع البخور وتقديم الحمل، فلم يستطع أن يشترك فى خدمة الشماسية، فوقف فى نهاية الكنيسة ليصلى مع باقى الشعب، وهو يشعر أنه غير مستحق لضعفه أن يخدم شماساً فى هذا القداس.

إذ رأى الله اتضاعه وبذله، فقد أتى إلى القداس وهو مجهد جسمانياً ولكن أشواق قلبه تدفعه لنوال بركة القداس، فرأى ما لم يتوقعه.

فيما هو ينظر إلى الهيكل والكاهن والشمامسة إخوته وهم يخدمون، رأى رؤية عجيبة. إذ راى كأنه هناك حاجز، أو سقف فوق الكاهن والشمامسة ومن فوقه رأى المسيح بنفسه، جالساً على عرشه فى حضن الآب وهو الحائط الشرقى المجوف؛ الذى فى شرقية الهيكل؛ ثم رأى المنجلية يقف عليها بولس الرسول ووجهه متجه نحو المسيح، عكس الشماس الذى يقف على المنجلية السفلية ووجه نحو الشعب؛ ليقرأ من رسائل بولس الرسول. وسمع نفس الكلمات المقروءة أسفل، تقرأ أيضاً فى الكنيسة العلوية، على فم بولس نفسه. وبعد أن انتهى بولس من قراءته، ذهب وسجد أمام المسيح ووقف بجواره، ثم أتى بطرس الرسول ووقف على المنجلية وقرأ جزءً من رسائله، بنفس الكلمات التى يقرأها الشماس فى الكنيسة السفلية. وهكذا أيضاً وقف لوقا يقرأ سفر أعمال الرسل.

وعندما أتى وقت قراءة السنكسار تقدم الشهيد ليقرأ سيرته فى الكنيسة العلوية. كل هؤلاء كانوا – بعد القراءة – يسجدون أمام المسيح، ثم يقفوا بجواره.

وعندما قرئ الإنجيل والمزمور فى الكنيسة السفلية، شاهد داود يقرأ المزمور على المنجلية وبعده أتى متى البشير وقرأ من إنجيله.

استمرت صلوات القداس فى الكنيسة السفلية والمسيح جالساً على عرشه. وعندما أتى وقت التقديس قدموا للمسيح قربانة فقسمها بيده وغمس إصبعه فى الكأس.

وفى أوشية الأهوية وثمار الأرض تقدم ملاكين يحملان طبقاً كبيراً وضعت عليه ثمار الأرض المختلفة، فمد المسيح يده وباركها.

أما عندما بدأ الكاهن يصلى المجمع فى الكنيسة السفلية وذكر اسم السيدة العذراء، أتت وسجدت أمام المسيح، فأقامها بيده وأجلسها عن يمينه. ثم توالى ذكر القديسين على فم الكاهن، فأتى كل واحد منهم وسجد أمام المسيح ثم وقف بجواره.

وهكذا تمتع الشماس بقداس لم يشهده من قبل وأيقن أن المسيح موجود فى كل قداس وحوله القديسين، فكان فى فرح لا يستطيع التعبير عنه ومن اتضاعه سالت الدموع على خديه، شاكراً الله، الذى أهله لهذه الرؤية رغم ضعفه وتأخره عن القداس، ولكنه شعر أن هذا اليوم هو أفضل أيام حياته وأكبر نجاح حققه، إذ ارتفع إلى السماء وعاين الله وهو على الأرض، فازداد اتضاعاً وشكراً لله وتمسكاً بالكنيسة.

الفهرس

	رقم الصفحة
الفصل الأول : انطلاق فى محبة الله	**6**
الفصل الثانى : فيض عطايا الله	**15**
الفصل الثالث : تقييد الشيطان	**28**
الفصل الرابع : كسب الآخرين	**39**
الفصل الخامس: النجـاح	**50**

إصدارات سابقة :

أ – تفسير الكتاب المقدس :

1- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد الجديد الجزء الأول (بشارتى متى ومرقس) نوفمبر 2004.

2- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد الجديد الجزء الثانى (لوقا ويوحنا) نوفمبر 2004.

3- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد الجديد الجزء الثالث (أعمال الرسل ورسالة رومية) مارس 2005.

4- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد الجديد الجزء الرابع (تفسير رسائل بولس الرسول من كورنثوس الأولى حتى فليمون) يوليو 2005.

5- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد الجديد الجزء الخامس (من العبرانيين حتى رؤيا يوحنا اللاهوتى) نوفمبر 2005.

6- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم الجزء الأول (سفر التكوين) مارس 2006.

7- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم الجزء الثانى (سفرا الخروج واللاويين) نوفمبر 2006.

8- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم الجزء الثالث (سفرا العدد والتثنية) يوليو 2007.

9- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم الجزء الرابع (أسفار يشوع وقضاة وراعوث) ديسمبر 2007.

10- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم الجزء الخامس (صموئيل أول وثانى) يونيو 2008.

11- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم الجزء السادس (ملوك أول وثانى) يونيو 2009.

12- دراسة وتفسير سفر طوبيا يوليو 1996.

13- دراسة وتفسير سفر يهوديت يوليو 1997.

14- دراسة وتفسير سفر الحكمة الجزء الأول يوليو 1998.

15- دراسة وتفسير سفر الحكمة الجزء الثانى يناير 1999.

16- دراسة وتفسير سفر الحكمة الجزء الثالث أغسطس 1999.

ب – ميلاديات :

1- الحب المتجسد يناير 2004

2- أحبك يا إلهى المتجسد لأجلى يناير 2005

جـ- القيامة :

1- إنسان القيامة أبريل 2003

2- المسيح القائم فى وسطنا أبريل 2004

د – قراءات يومية :

1- معاً كل يوم (ثلاثة كتب) يناير 2001

2- معاً كل يوم للكبير والصغير (كتابين) نوفمبر 2005

هـ- قصص من الحياة :

1- تدبيرك فاق العقول الجزء الأول أبريل 2003
2- تدبيرك فاق العقول الجزء الثانى سبتمبر 2006
3- تدبيرك فاق العقول الجزء الثالث مارس 2008

و – متنوعات :

1- الطاعة طريق القيامة مايو 2005
2- أريد أن أرى الله يناير 2006
3- كيف أرى الله أبريل 2006
4- الله فى حياتى يناير 2007
5- الصلاة لذة الحياة أبريل 2007
6- المسيح فى الزواج والأسرة يوليو 2007
7- فرح عظيم يناير 2008
8- فرح مجدد ومجيد أبريل 2008
9- طريق الأفراح يناير 2009
10- أحضانى تناديك يا حبيبى أبريل 2009

ملحوظة :

- بعض هذه الكتب قد نفذ وجارى طبعها.
- صدرت طبعات كثيرة لبعض الكتب والتاريخ المذكور هنا هو تاريخ الطبعة الأولى.